مقدمة لكتاب علي الزين: فصول من تاريخ الشيعة في لبنان (١)

مؤرخ يعارض العلاقات الداخلية في الجماعة العاملية

بقلم : أحمد بيضون

يصدر للشيخ علي الزين في غضون أيام كتاب جديد بعنوان « فصول من تاريخ الشيعة في لبنان » . أحمد بيضون كتب مقدمة طويلة للكتاب ، ننشر مقاطع واسعة منها على حلقتين . وفي هذه المقاطع يحاول الكاتب تحديد المؤلف ، موقعه ، علاقته بالطائفة ، وعلاقته بالدولة .

وانا اباشر كتابة هذا التقديم يداخلني حرج لم اكن فطنت اليه (او لم يكن فطن الي) حين تقبلت المهمة قبل بضعة اسابيع . وذلك ان مهمة التقديم تضعني بغتة في مواجهة مع المؤلف ، فتدخلني قبله في النص . وهي مواجهة يصعب علي اعلانها ـ لان « الانا » كريهة ، ويزيدها قبحا ان تصر على ولوج نص مكرس لشخص اخر ـ ويصعب علي كتمانها ، لانها ـ على ما احسب ـ صلب الموضوع . فاختار اعلانها .

والسؤال هو التالي : من انا حتى يطلب الي ـ واقبل ـ ان اقدم علي الزين ؟ اعمد الى مقارنة جد مبتسرة ، الا انها تكفي لكشف ما في الامر من غرابة . علي الزين في اواخر سبعيناته ، وانا في اواسط ثلاثيناتي . علي الزين عاملي امضى عمره في الجنوب ـ باستثناء اعوام الدراسة في النجف ـ ويعرفه شيب الجنوب وشبانه . وانا جنوبي ايضا ، امضيت هناك طفولتي وصباي ، وامضيت معظم سنوات النضج خارج جبل عامل ، ومن اعرفهم ويعرفونني قلة هناك . علي الزين يكتب وينشر منذ نصف قرن تقريبا ويوقع اسمه على ما ينشر . و انا اكتب ايضا وانشر منذ سنوات ادنى عددا بكثير ـ طبعا ! ـ وكنت لثلاث سنوات خلت او اربع ، ولاسباب لا اهمية لذكرها ، اوقع على ما اكتبه ـ وهو قليل في اي حال ـ باسماء مستعارة او اخرجه بلا توقيع على الاطلاق . فباية صفة اذن يتولى شخص ضئيل الزاد من السنين والصلات والآثار تقديم شخص تهدم جسده الضئيل تحت ثقل السنين واعباء الصحبة والخصام وكادت عيناه تنطفئان وهو مكب على اواخر اثاره ؟ .

خلف هذا الشعور بغرابة المهمة ، تلوح لي الصفة التي افترضها لي من عهد الي بكتابة هذا التقديم ، واعود ، بدوري ، فافترضها لنفسي . انا مثقف « حديث » كونته اولا ، ورسمت ، ولو الى حد ، وجهة تحصيله اللاحق ، مناهج للتعليم اقرتها « دولة » وعلي الزين ـ رغم جريه ورعيله وراء هذه « الحداثة » ـ شيخ شيعي كونته ثقافة رسم معالمها السلف من ارباب المذهب وشيخ عاملي وصل بلا عائق عبر بيته من تعليم النجف الى بيئة العلماء والشعراء في جبل عامل ، ايا كان نصيب النقد في موقفه من تعليم النجف ومن علماء جبل عامل . اي ان صفة « مثقف الدولة » هي المفترضة لي ـ ولا فخر ! ـ وصفة « مثقف الطائفة » هي المفترضة لعلي الزين ـ ولا تثريب ! ـ . واسارع ، بعد استبعاد الفخر والتثريب ، الى اثبات التحفظ على ما سبق : فلا الدولة دولة ، ولا الطائفة طائفة ..

علي الزين ايضا ـ في امتداد هذا التعريف الاول ـ مثقف « عاملي » . وانا مثقف « لبناني » . فيكون علي اذن ان اقدمه الى قرائه « اللبنانيين » ، والى قرائه العامليين بصفتهم لبنانيين ايضا ، وليس بصفتهم عامليين ، اذ انهم ، بهذه الصفة الاخيرة ، يعرفونه حق المعرفة ...

* * *

نشدد على غياب مثال « الدولة القومية » من وجهة علي الزين في بسط التاريخ العاملي . على ان ما يفسر هذا الغياب ليس ان المؤرخ بلا موقف قومي ، وكيف لا يكون جهلنا مثار هزء ان نحن نعينا غياب « الموقف القومي » على رجل كان بين ورثة الحركة الهاشمية المباشرين في جبل عامل ، وكان في الصدارة خلال الثلاثينات داخل الحركة المناوئة للانتداب والمطالبة بوحدة سوريا العربية في ذلك الجبل ، وكان بين اوائل المنتسبين العامليين ـ بعد ان جاوز الخمسين من سنيه ! ـ الى حزب البعث العربي الاشتراكي ؟ لكننا ندع جانبا نضال علي الزين السياسي ـ وهو يستحق مع نضال وعيله ابحاثا على حدة ـ مقتصرين ، في هذه العجالة ، على تناول كتبه . والحال اننا نقع في هذه الكتب نفسها ايضا ، على صفحات لا تترك مجالا للبس في شان هوية جبل عامل القومية .. ولكن من حيث هي هوية « اصلية » ، اذا صحت العبارة ، اي هوية انتساب لا رجعة عنه ، وان لم يعد الى البروز في صورة العامل الثابت الذي يصنع سياق الحوادث .. وليس من حيث ان هذه الهوية هوية « سياسية » اي انتساب دينامي دائم التدخل في اختيارات الجماعة على مدى تاريخها . يكفي للتثبت من « اصلية » هذه الهوية ان نقرا ملاحظات المؤلف على مقالة لامنس .. فنعلم ان المتاولة عنده عرب لا ريب في عروبتهم .. ويكفي للتثبت من « لاسياسية » الهوية نفسها ان نقرا الكتب الثلاثة برمتها .

* * *

اذن ليس مرد الاستنكاف عن وضع هذا التاريخ للعهود الاقطاعية في وجهة « الدولة القومية » ، الى غياب الهاجس القومي عن بال الموقف ، بل الى انه يحمل على محمل الجد علاقات الجماعة « ما دون القومية » التي يؤرخ لها ، اي علاقات الاقطاع والطائفة . وليس ثمة مفر من القول ان هذه الجدية بعيدة كل البعد عن ان تكون موقفا « علميا » او « موضوعيا » صرفا وانها ، قبل كل شيء ، وجه لجدية انخراط علي الزين في الجماعة المذكورة ، بحدودها ، ولاسبقيته على اي انخراط اخر . لا يسف علي الزين الى وهدة تسخير النصوص ، فلا يجمل تاريخ الجماعة حيث لا يكون هذا التاريخ جميلا ، ولا يفتعل لمقاتليها البطولات ولا لاعيانها العظمة . بل ان ولعه باثبات شواهده على حالها الاصلية هو في ذاته شهادة وافية ببعده عن هذه الوهدة . واحسبني شددت بما فيه الكفاية على ابراز التواضع العام الذي يسم تاريخ هذا الشيخ لجبل عامل . للانخراط هنا معنى اخر هو انه ما يشعرنا بمعاناة المؤرخ المستمرة لما يرويه ومما يرويه . فالنص الذي يصوغه لا يتخلى في اية مرة عن وظيفة يمكن ان نطلق عليها اسم « قياس القيمة » ، قيمة الحدث او الشخص او الجماعة (١) فيبدو لنا ان التاريخ « ينتصف » الى المؤرخ ، ف « ينصف » هو ـ بهدوء تارة وبشيء من العصبية طورا ـ ما في هذا التاريخ ومن فيه . وهو لا ينصف من خارج ، بل لا يدع لك فرصة ارتياب في امر الصف الذي يقف فيه . ولأقل مرة اخرى ـ مجازفا بالسقوط في الاملال ـ ان هذا الانخراط ، او التماهي مع طرف من اطراف الحدث ، ليس ، باية صورة ، مرادفا للتحوير ولا للتزوير .

والانخراط المذكور معقد التراتب . في المواجهة بين المتاولة والجزار يقف المؤرخ مع المتاولة طبعا . أما في المواجهة بين الجزار والزناة من عبيده وجواريه فيقف مع الجزار (٢) . وهو بعد ان يعرض مثلا اخبار الوقائع بين العامليين واللبنانيين ، في العهد الشهابي ، من بشير الأول الى يوسف ومن مشرف الى ناصيف النصار ، يحرص على الافضاء بتقويم اجمالي ، نادر عنده ، يهشم به صورة تاريخية صنعها ذوو مشارب مختلفة للمتاولة وقبلها بعض المتاولة لانفسهم ، وهي صورة المتوالي المخذول أبدا (٣) . وهو من حين يدخل في خبر خصام بين واحد من أعيان اله (ال الزين) واخر من اسرة اخرى يعمد ـ مع الاعتذار الدائم ـ الى « الانتصاف » لاله مما دسه عليهم رواة خصوم .. الخ .. (٤) .

على انني ادع جانبا هذا الشتات من الامثلة لاشير الى ما هو أهم ، اي الى ما يحتل موقع الجذع من انتماء علي الزين الى جماعة العامليين الشيعة . قصدت موقفه من الفئات الوظيفية البارزة التي انقسمت اليها الجماعة المذكورة في ظل الاقطاع : من العامة ومن علماء المذهب ومن الاقطاعيين .

لا يصطنع مؤرخنا للعامة وزنا لم يكن لهم ويترك لسواه ان يبحث في دورهم التاريخي ، خلال عهد الاقطاع ، عن انتفاضات يلوح بها في ايامنا الحاضرة ، قدوة لمن اقتدى او عبرة لمن اعتبر . ويظهر جليا ، في روايته ـ مثلا ـ لاخبار « الطياح » بعد اجتياح الجزار جبل عامل ، ان ابناء ناصيف النصار العائدين هم الذين بادروا الى « الطياحة » ونظموها ، وانهم كانوا ذوي وطاة على الاهلين ، ثقيلة ثقل وطاة « السردلة » الذين كلفهم الباشا بالقضاء على الطياحة ... وان بعض العامليين حاولوا ان يتولوا ، بامر الباشا ، مهمة القضاء على الطياح من ابناء بلادهم (٥) . اذن لا قداسة تفترض سلفا في العامة ولا حالة ثورة دائمة تراوح بين الغليان والكمون ، لكنها تظل قائمة . بل ان المؤلف لا يستنكف ، في مواضع اخرى ، عن اثبات تشخيصه العام لوضع العامة السياسي . فتراه يكتب في موضع ان الشعب « كان ينظر الى الحاكم نظرة العبد الى سيده ولا يتجاسر على رفع نظره اليه . فكانت الاهالي تحتفل بحاكمها (...) قبل ان تعلم عنه شيئا وتحرق له بخورا وتضيء له الشموع وتزين الشوارع كما هي العادة التي لم تزل تحترم نصوصها الى يومنا هذا » (٦) . وتراه ينقل عن الجبرتي في موضع اخر انه « قد بلغ من هوان الفلاحين ان اصبح الاذلال دستورا محترما لديهم : فكانوا اذا ما انسوا من الملتزم او من الملاك تسامحا معهم ورحمة بهم .. تهاونوا في خدمته وازدروه وماطلوه في دفع ما عليهم له » (٧) .

على ان تسليط الضوء على استكانة العامة للاقطاعيين ، لا يميل بعلي الزين ناحية هؤلاء . وما دام تاريخ هذه الحقب التي يؤرخ لها مؤلفنا ، هو ، في مصادره الاصلية ، تاريخ الاقطاعيين ونظامهم ، قبل ان يكون تاريخا لاية فئة سواهم ، وما دامت العامة تظهر في هذه المصادر كتلة واحدة او قطعانا قل ان تعنى المصادر بحفر ملامح مميزة بين مجموعاتها ، فان المرء يدهش لخروج علي الزين على القاعدة المالوفة في تواريخ جيله من المؤرخين : ان يواصل المؤرخ « انابة » الحاكم عن الجماعة ، فيجعل من قوة حاكم معين صورة لقوتها ويمد اشعاع هذه القوة الى عهود سابقة ولاحقة ، كان الحاكم القوي الذي عبر قد استحال الى جوهر ثابت للجماعة يلام الحكام الضعفاء « السابقون او اللاحقون » على نكوصهم دون بلوغه وعجزهم عن جلائه .

لا شيء من هذا ، على وجه الاجمال ، عند علي الزين . فلا نكاد نقع عنده الا على التحفظ ـ ان لم نقل العداء ـ ازاء صور مشايخ الاقطاع المتاولة التي نجلوها روايات من عاصروهم وقصائدهم . فنجد ان عتب المؤرخ على العامة ـ وهو عتب المحب ـ يمتد ـ رغم الاستثناءات ـ في حذر من مشايخ الاقطاع يحاذي النقمة المكشوفة احيانا . فهم ظلمة . وهم قلما يتحدون للذود عن بلادهم . وهم غالبا اذناب الولاة يتنافسون على رضاهم بل يتخاصمون في طلبه . وحين يرد علي الزين على قول احمد رضا ان قادة المتاولة المجتمعين شرقي النبطية قرروا ان لا يبدأوا الامير يوسف الشهابي بالقتال بعد ان كان قد اجتاح مقاطعاتهم من الغازية الى جباع ومن هذه الى كفر رمان . يقول ان « في هذا ما فيه من دواعي الشك بمثل هذه الروايات والافتراضات التي تسيء الى قادة المتاولة وتشوه سيرتهم في فهم الامور وتقدير المسؤوليات الملقاة على عاتقهم » (٨) . فنقع هنا على مثال نادر لتضامن المؤرخ مع مشايخ المتاولة . وتشيل كفة هذا التقييم بازاء احكام تنحو منحى التعميم ، منها قول المؤلف مثلا ان ال علي الصغير يئسوا من ولاء الناس ، بعد فتكهم بآل شكر ، فاعتمدوا الارهاب الداخلي والانقياد الخارجي للحكام والولاة (٩) . ومنها قوله في نسق سلطة المشايخ ومداها واسلوب تصرفهم بها ان المشايخ « كان يتولى أمرهم شيخ منهم توليه عليهم الدولة بعد ان تفرض عليه الجباية وتطلق له التصرف باحوال الشعب وراحته ، وكانت شريعة شيخنا هذا ارادته (...) وكان هذا الزعيم (...) يقيم له معاونين ووكلاء (...) وكان يفرض عليهم مالا محدودا ويعدهم ان لا يتعرض لاعمالهم فيمرحون ويطلقون لمطامعهم الاشعبية الأعنة في مص حياة الشعب من عروقه بلا شفقة ولا حنان ، وكانوا يستعبدون ويأتون المنكرات (...) » (١٠) .

أما العلماء ـ وقد كان أمرهم من اغمض ما في التاريخ العاملي خلال العهود التي يؤرخ لها علي الزين ـ فلا بد في شانهم اولا من اكبار جهد المؤرخ الذي نبش المخطوطات والمنشورات القديمة نسبيا نصوصا لم يستوقف معظمها سابقيه ، وهي تكسو شحما ولحما ـ وتعدل ايضا ـ أحكاما مجردة كثيرا ما اطلقت على دورهم في الجماعة وعلى علاقاتهم بالزعامة الاقطاعية (١١) . مع هذه النصوص يبدو الحاق العلماء بالزعامة الاقطاعية محدد السمات . فاذا طلب الحاكم من الشيخ العالم ان يكون نائب قاض ـ عوضا عن تركي لا هو بشيعي ولا هو بقابل على الارجح تعريض نفسه لنفوذ الزعيم دون مقابل ـ قرن الحاكم الطلب لا بحفظ قدرته على توجيه الشيخ وحسب بل بعرض مفاده انه هو ـ اي الحاكم ـ سيكون القائم الفعلي باعمال القضاء . واذا عرفنا ان المتاولة ـ الذين لم يكن مذهبهم بين المذاهب المعترف بها في ظل العثمانيين ـ كانوا يحتفظون لدى علمائهم بقضاء غير رسمي (يسمونه « الشريعة ») ، ادركنا ان هذا القضاء لم يكن يسعه ان يظل بمنأى عن سلطة الاقطاع ، وان اساليب استجلاب مشايخ المذهب ـ وهذا بين في النصوص ـ كانت عديدة . ندرك من النصوص ايضا انه كان لهذا الالحاق مقابل يندرج معه في اقتصاد علامي (سميلوجي) موضعي ، هو شعائر الخضوع التي كان الزعماء يؤدونها لمشايخ المذهب حفظا لمكانة هؤلاء من العامة ورمزا لانتساب من الزعماء الى المذهب يبغي ارساء وحدة ما بين انتماء الجماعة الموحد الى المذهب وانتمائها الى زعمائها . يتبدى ايضا من مثال السيد محمد الأمين (١٢) ان العلماء ـ والسادة منهم على وجه التخصيص ـ كان في وسعهم اختزان بديل للزعامة السياسية يلجأ الولاة (هنا خورشيد باشا) الى « تحقيقه » حين تبيد الزعامة الاقطاعية مؤقتا ، وتضفي عليه الصفة المذهبية للسادة طابع « المعقل الاخير » (والاستثنائي في ان) لوحدة الجماعة . في بسط هذا كله ـ أو النصوص المفضية اليه اقلا ـ يبدو المؤرخ حانقا على علماء تلك العهود ، حذرا ازاء ما خطته ايديهم من نصوص ذات محتوى تاريخي ومن قصائد .. ويشف نص المؤرخ الشيخ عن صورة أخرى مرتجاة لعلماء المذهب ودورهم مغايرة جدا لصورتهم في مصادر تاريخه .

نحن اذن امام مؤرخ معارض تنصب معارضته في تيارها الأشد على العلاقات الداخلية في الجماعة العاملية (١٣) ، في موقفه من الاقطاعيين والعلماء وفي تنديده باستكانة العامة تبدو المعارضة صيغة لوجوه انخراطه الاساسي في الجماعة . وتبدو هذه الجماعة نفسها (متاولة جبل عامل) ـ لا الاوسع منها ولا الاضيق ـ مكان هذا الانخراط الاساسي أي مكان هويته وهمومه وحزنه وغضبه واحلامه . فحلم الحاضر الذي يكتب علي الزين تاريخ الجماعة انطلاقا منه هو اولا حلم بصورة جديدة تتخذها الجماعة نفسها ، وليس حلما يتجاوز وضعها الداخلي ويلغيه .. اي انه ليس حلما بدولة .



علاف الكتاب



جبل عامل . منطق الابداع الجنوبي

هوامش

١ ــ يشكل « قياس القيمة » هذا وسيلة المؤرخ للتدخل في تنظيم الصورة التي يقدمها للجماعة عن تاريخها ، اي في توزيع علامات السلب وعلامات الايجاب على عناصر هذا التاريخ وفي احلال التراتب بينها . أي ان المؤرخ يتدخل بالنتيجة في تنظيم المخيلة التاريخية للجماعة .

٢ ــ أعلاه : الفصل الاول .

٣ ــ للبحث .. ص ٥٨٩ .

٤ ــ أعلاه : الهامش ١١ ومواضيع اخرى من هذا الكتاب .

٥ ــ أدناه : الفصل الثاني .

٦ ــ « العادات والتقاليد » ... م م . ص ٣٤ . وكان هذا التقدير منتشرا بين كتاب مجلة « العرفان » وشعرائها ، من رعيل علي الزين ، حين يتناولون مواقف العامة من الزعماء . نجد نماذج منه ، مثلا ، في قصائد لموسى الزين شرارة وعبد الحسين عبد الله ومحمد يوسف مقلد وفي مقالات لابن البادية لانيس ايراني الخ . لكن ما تنطوي عليه هذه النصوص ليس احتقارا للعامة ، بل هو اقرب الى ان يكون حنقا على جهلها وذلها .

٧ ــ « العادات والتقاليد ... » م م . ص ٦٨

٨ ــ « للبحث .. » م م . ص ٥٢٦ .

٩ ــ « للبحث .. » م م . ص ٢٩٠ ــ ٢٩١ .

١٠ ــ « العادت والتقاليد .. » م.م ص ٧٠ ــ ٧١ ويلاحظ ان المؤرخ يخص (ص ٧٢) ناصيف النصار ، ابرز وجه بين قادة المتاولة في عهد الاقطاع ، باشارة الى ظلمه . لا تفلح اسطورة ناصيف انن (مقاومته الغرباء واعلاؤه شأن الجبل وتوطيده استقلاله الداخلي) في انقاذه من هذه اللسعة التي يقبلها سياق النص ، لكنه لا يحتمها .

١١ ــ ابرز هذه النصوص ما يقتطعه المؤلف من مخطوطة الشيخ محمد مهدي مغنية « جواهر الحكم » (ادناه : الفصل الثالث) . ولعله يكون في نشر هذه الصفحات ما يحفز القادرين على نشر المخطوطة المذكورة في كتاب . وذلك لما يبدو لها من اهمية ، لا في معرفة احداث التاريخ السياسي لجبل عامل ، وحسب ، بل ، على الاخص ، في معرفة تاريخه الاجتماعي ابان القرن الماضي .

١٢ ــ ادناه : الفصل الثالث .

١٣ ــ حين يرى القارىء لدى علي الزين وزملائه من كتاب « العرفان » نفض اليد هذا من « الزعامات » ومن العلماء ومن العامة ــ وان تفاوتت مغازيه بين حالة واخرى ــ يتساءل حتما : على من يعولون في الاصلاح الذي يسعون اليه ؟ لكنه سرعان ما يلاحظ انهم ، في الواقع ، لا ينفضون ايديهم من اية فئة برمتها ــ في كل من فئات الجماعة عناصر او مجموعات يمكن ان يحفزها السعي الى حداثة لا تطيح اية مرتبة من مراتب الهوية الموروثة ، لا مرتبة الدين ولا مرتبة المذهب ، لا مرتبة القومية ولا مرتبة الانتماء المحلي . هكذا كانت « العرفان » تجمع الى حديث العلم الغربي ، في اخر مخترعاته ، احاديث كربلاء والتاريخ العاملي ووحدة المسلمين ووحدة العرب .. وكان الباب مفتوحا امام علماء وادباء وزعماء ومغتربين ، الخ .. للعدول الى هذا الموقع .. وكانت فرضية هؤلاء الدعاة المتنورين ان « التنور » هو طريق « التحرر » ايا كان الاصل الاجتماعي . والتنور لا بد ان يتسع بين فئات الجماعة كلها بفضل نشر التعليم . ومالاتصعب رؤيته هو ان هذه الفرضية كانت تحتفظ لمثقفي « الحداثة » انفسهم بمكان الطليعة . وفي « للبحث ... » م.م ص ٩١ ــ ١٣٣ وفي « العادات والتقاليد .. » م.م الصفحات الاخيرة ــ ملحقان يتناولان مسائل عصمة الامام ووحدة المسلمين والاجتهاد ومناهج التعليم في النجف . والنصان نموذجان لما يؤول اليه الموقف العقلاني اللاحق بالحداثة (اي الموقف « المتنور ») حين يواجه من الداخل (علي الزين شيخ نجفي) بعض مسائل المعتقد الديني والمذهبي نفسه .

(غدا : هم الدولة حاضر لكنها تاتي قسرا الى جبل عامل)

السفير، ١٢ تشرين الأول ١٩٧٩، صفحة ١١